المحاضرة الأولى:

مدخل إلى نظرية الأنساق-1

تتكون الأسرة من أفراد ولكننا لا نستطيع فهم سلوكها فهما كاملا من خلال دراسة كل فرد فيها على حدى، فلو درسنا سلوك كل عضو من أعضاء فلن نقول إننا قد درسنا سلوك الأسرة. وتشبّه **إيفلين سيبرج Evelyn Sieburg** مثل هذه الدراسة بمن يحاول دراسة سيارة وفهمها من خلال تناول كل جزء فيها على حدى :"إننا قد نستطيع بهذه الطريقة معرفة بعض الأشياء عن السيارة، لكننا سوف لا نعرف أهم مظهر على الإطلاق ألا وهو معرفة كيف تعمل هذه الأجزاء معا.

1-مفهوم النسق:

ويمكن تفسير ظهور مفهوم النسق في جزء كبير منه بتزايد تعقيد الظواهر الاقتصادية والاجتماعية (التغييرات في انماط الحياة، ظاهرة العولمة،...) ،وتضاعف التفاعلات بين هذه الظواهر المختلفة كعولمة التبادلات، سواء كانت تجارية أو مالية أو ثقافية، والتي عملت على تسريع هذا الوعي بالتعقيد وتسليط الضوء على آثاره على مستويات عدّة. إذ فقد كانت المغامرة الفكرية العظمى في نهاية القرن العشرين هي اكتشاف المقاربة النسقية، خلال رحلة بحثهم عن المعرفة والحكمة، سعى الباحثين إلى تفسيرات بسيطة ومنطقية من أجل ضمان الرفاهية للعالم. فهي الأنسب لدراسة التعقيد المنظم في شكل أنساق كما صادف في النظم البيولوجية والاقتصادية والاجتماعية مع مراعاة خاصية عدم الاستقرار والانفتاح والتقلّب والفوضى والاضطرابات والغموض والابداع والتناقض والارتياب الذي يكتنف الأنساق المعقدة، التي كان ينظر إليها في الماضي على أنها غير علمية بتاتا من خلال الوضعية السائدة، تعتبر الآن من المتطلبات الأساسية لفهم تعقيد الواقع. يقول أينشتاين:" أنظر بعمق إلى الطبيعة وعندها ستفهم كل شيء"

2- تعريف النسق:

لغة: ما كان على نظام واحد من كل شيء. يقال جاء القوم نسقا، وزعت الأشجار نسقا، ويقال كلام نسق: متلائم على نظام واحد.

أمّا **اصطلاحا** فيعتبر هذا المفهوم من أكثر المفاهيم التي اختلف حول تعريفها، علاوة على أنه يتم استخدامها في مجالات مختلفة، إلاّ أنه تجدر الإشارة أنّه هناك اتجاهين أساسيين في تعريف النسق، الاتجاه الوظيفي والاتجاه النسقي. أمّا الاتجاه الوظيفي فيركّز على أدوار ووظائف النسق للحفاظ على التوازن دون الأخذ بعين الاعتبار العلاقات التفاعلية الديناميكية بين الأنساق ببعضها البعض سواء داخليا أو خارجيا، هذا التيّار الذي تتبناه البنائية الوظيفية التي تستخدم مفهوم النسق المغلق. أمّا الاتجاه الثاني فينظر للنسق بمنطق تفاعلي دائري وديناميكي، من خلال علاقة النسق بالأنساق الأخرى وتفاعله معها واعتماده عليها واعتمادها عليه وهو النسق المفتوح.

DJABALLAH

ويعرّف النسق أيضا على أنه: تنظيم أو هيكل يتألف من عناصر ثابتة تؤسس علاقات خاصة مع البيئة المحيطة وتتكون من أجزاء مرتبة ببعضها البعض. يعمل كل جزء على تعديل الأجزاء الأخرى وكل منها مرتبط بكل متكامل.

ويعدّ التعريف الذي قدّمه **هارتمان ولاريد Hartman 1983** و**Larid** فالنسق استنادا لهذين الباحثين هو "ذلك الكل الذي يتكون من أجزاء متداخلة فيما بينها، ومعتمدة على بعضها البعض"، كما يعرّف على أنه "نظام معقّد لعناصر متفاعلة بعضها مع بعض".

ويعرّفه **دوسوسير De daussure** بأنّه" كل منظم يتكون من عناصر مترابطة لا يمكن تعريفها إلاّ فيما يتعلّق بعلاقتها ببعضها البعض وفقا لمكانتها في هذا الكلّ"

أمّا **بارتالانفي Baertalanfy** فيرى أنّ النسق هو "مجموعة من الوحدات المترابطة والمتبادلة"

وتميّز **مادلين غراوتيز1993** بين اتجاهين أساسيين في تعريف النسق:

- **الاتجاه الأوّل: البنيوي الوظيفي** بزعامة **تالكوت بارسونز**، والذي مثّل مفهوم النسق العام بالنسبة له وحدة للتحليل ويقسّم **بارسونز** هذا النسق العام إلى أربعة أنساق فرعية بيولوجي، ونفسي واجتماعي وثقافي، والفعل المادي(الفعل الاجتماعي) ينتج دائما من تفاعل هذه العناصر الأربعة، إلاّ أنه تمّ انتقاد هذا الاتجاه لنظرته المهمة والمتناقضة للنسق.
- **الاتجاه الثاني: (التوجيهي) السبرنيطيقي** والذي طبق في العلوم السياسية خاصة مع أعمال **دافيد إستون** و**لوسيان ميل**، حيث تمّ النظر للنسق بصيغة تفاعلية ديناميكية فحسب **إيستون** فإنّ **بارسونز** قد أهمل مفهوم التوازن في الأنساق، ومن وجهة نظره فإنّ المسألة الأساسية للأنظمة هي الاستمرار عبر التغير فالنظام السياسي يتكون من الجماعة، السلطات وأسلوب الحكم.

3- أنواع النسق:

يميّز الباحثون بين نوعين من الأنساق هما: النسق المفتوح والنسق المغلق.

3-1:النسق المفتوح: هو النسق الذي يتميّز بعلاقات تبادلية بينه وبين بيئته، فيستمد موارده الأساسية منها ويزودها بمخرجاته، ويتميّز بالخصائص التالية:

- ✓ يتبادل النسق المفتوح التأثر والتأثير مع البيئة، فيأخذ منها المعلومات والموارد الأساسية(المدخلات) ويزوّدها بالمخرجات فالنسق المفتوح له مدخلات ومخرجات مرتبطة بالبيئة التي تحيط به.
- ✓ يحافظ النسق المفتوح على حالة من التوازن والاستقرار، فالنسق يحافظ على مكوناته وعلى النسب بين هذه المكونات بشكل مستمر، فإذا حدث خلل فإنّه يعيد تنظيم مكوناته بما يساعده على أن تبقى علاقته مع البيئة إيجابية ومتوازنة دائما، فهو في حالة تكيف مستمر مع البيئة وهذا التكيّف ديناميكي لأنّ النسق لا يتجمّد بل يتفاعل بشكل مستمر مع بيئته.
- ✓ إنّ مدخلات النسق المفتوح معقّدة، فهو لا يعتمد على مدخل واحد أو طريقة واحدة للحصول على المدخلات، كما أنّ مخرجات هذا النسق معقّدة ويزداد انفتاح النسق على البيئة كلّما ازداد تعقّد مدخلاته ومخرجاته، أمّا الأنساق المغلقة فإنّ مدخلاتها قليلة جدا ومحددة ومخرجاتها بسيطة أيضا.
- ✓ إنّ نشاط النسق المفتوح مستمر فهو يستورد موارده الأساسية من البيئة ويحوّلها إلى مخرجات تلبّي حاجة البيئة، وهذه المخرجات تؤثر مرة أخرى على مدخلات النسق من حيث النوع والكم.
- ✓ النسق المفتوح أكثر قدرة على البقاء والاستمرار وذلك لأنّه قادر على استيراد الطاقة والموارد الأساسية بشكل مستمر، وهذا يساعده على الصمود لعوامل الفناء والتغيير.
- ✓ يتلقى النسق المفتوح تغذية راجعة منظمة، ويستجيب لهذه التغذية، ويعدّل من مدخلاته وعملياته في ضوء ما يتلقاه من تغذية راجعة.

DIABALH

- ✓ إنّ أجزاء النسق المفتوح مترابطة ومتكاملة، وتقوم بعض أجزاءه بنشاط ما مثل استقبال الموارد من البيئة، بينما تقوم أجزاء أخرى بتحويلها إلى صورة أخرى وتقوم أجزاء أخرى بالمحافظة على النسق وصيانة وجوده، ويكون ناتج النسق هو محصلة نشاط أجزائه.
- ✓ تتشابه الأنساق المفتوحة عند نشأتها، ولكنها بعد فترة من تفاعلها مع البيئة تتميز عن بعضها وذلك حسب نشاط كل نسق في تفاعله وفي قدرته على استيراد الموارد والطاقات من البيئة.

2-3: النسق المغلق: يسمى النسق مغلقا إذا كانت علاقاته مع البيئة محدودة جدا، فلا يستورد من البيئة موارد هامة ولا يزودها بمخرجات هامة فهو نسق معزول عن بيئته، ويتجاهل تماما ما يدور في البيئة وغالبا ما تسير هذه الأنساق نحو الضمور التدريجي والاختفاء.(ذوقان وآخرون1984، ص ص278-279)

إنّ الآلة نسق مغلق، لكن الكائن الحي يفترض أنّه نسق مفتوح ولا يمكن للنسق أن يظلّ حيا ناميا لمدّة طويلة بدون الاتصال مع بيئته، وكل نسق معرّض للضعف بل والانهيار مع مرور الزمن إذا كان تدفق الطاقة أقل بنائية وأقل انتظاما. ويحدث هذا التعرّض الذي يتضمن عدم الانتظام والعشوائية مما يسبب ظاهرة الطاقة المفقودة، بصورة أسرع في النسق الذي لا يكون لديه إلاّ عدد قليل من المدخلات التي تأتي إليه من الحدود الخارجية. فبينما ينزع النسق المغلق ويستسلم للضعف والانهيار، فإنّ النسق المفتوح يقاوم عناصر التهدّم لأنه يتفاعل مع البيئة فيمنحها الطاقة كما يستمدها منها في نفس الوقت، ومن المهم أيضا أنّ النسق المفتوح لا يعني فقط أنّ هذا النسق له تغييراته المتبادلة مع البيئة، ولكن يعني أنّ هذه التغييرات المتبادلة تعدّ عاملا جوهريا يكمن وراء قدرة النسق على الحياة والنمو.

4- التوجه النسقي في علم النفس:

إن التوجه النسقي في علم النفس توجه قديم نسبيا وله جذوره باعتباره العلم الذي يدرس السلوك الذي يتأثر بأنساق معينة، وفي مقدّمة هذه الأنساق التي تؤثر في السلوك تأتي الأسرة، وفكرة أنّ الأسرة تعدّ نسقا متكاملا فكرة متأصلة ولها أصولها في الفلسفة وعلم الاجتماع. وقد أعلن عالم الاجتماع **إميل دور كايم Emile Durkheim** قبل بداية هذا القرن أنه يمكن النظر إلى أي **جماعة إنسانية** بوصفها **نسقا**، ولكن هذه الفكرة لم تلق إلاّ تقبلا ضعيفا وبطيئا خصوصا من علماء النفس الذين استمرّ معظمهم ينظرون إلى الكائن البشري باعتباره الوحدة المناسبة للدراسة النفسية، بل وقد ذهبوا إلى أكثر من ذلك حيث حاولوا دراسة وعلاج العقل الإنساني بصورة جزئية ومستقلة عن الكائن البشري بوصفه وحدة كلّية، ودراسته بعيدا عن البيئة التي يعيش فيها هذا الكائن. ورغم ذلك فإنّ معظم المساهمات الأساسية والمهمة الخاصة بنظرية الأنساق وتطبيقاتها في مجال دراسة الجماعات الإنسانية قدّمها عالم النفس الألماني الأصل **كيرت ليفين Kurt Levin** والذي هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام1933 هربا من الاضطهاد النازي. ويتمثل إسهام **ليفين** في مجموعة المبادئ والمفاهيم التي صاغها مستوحيا فيها مبادئ العلوم الطبيعية والتي عرفت بنظرية المجال.

كذلك وفي القرن التاسع عشر والنصف الأوّل من القرن العشرين، كان ينظر لشخصية الانسان في النظريات السلوكية بصورة عشوائية، فالنفس حسبهم بطبيعتها فطرية والتعلّم مكتسب، فحسب **بارتالانفي** فإنّ كل هذه النظريات تقوم على تمثيل الإنسان بالروبوت، فالفكر النسقي هو نموذج جديد يحاول أن يفرض نفسه من خلال النظر لشخصية الانسان كنسق. وتمثل هذه الرؤيا قاسما مشتركا بين تيارات مختلفة كنظرية كل من **ويرنر Werner** و **بياجي Piaget** والمدرسة الفرويدية الحديثة، نظرية المعرفة ونظريات الشخصية مثل نظرية **ألبورت Allport** و**ماصلو Maslow** . هذا التصوّر ينطوي على إعادة توجيه علم النفس الشمولي، بحيث يظهر الكائن الحي النفسي-الفيسيولوجي ككل يأخذ في لاعتبار الجانب الإبداعي للإنسان، فالفرد يمثل جزءا من الكون الذي خلق فيه، هذه الصورة الجديدة للإنسان تستبدل مفهوم الانسان الروبوت بمفهوم النسق الذي يسلّط الضوء على النشاط الفطري بدلا من ردّ الفعل الموجّه للخارج والذي يعترف بخصوصية الثقافة الإنسانية في مقابل سلوك الحيوان.

5- مفهوم النسق الأسري:

1-5: تعريف الأسرة: يشير علماء الاجتماع في تعريفهم للأسرة إلى أنها جماعة اجتماعية بيولوجية نظامية، تتكون من رجل وامرأة –تقوم بينهما رابطة زواجية- وأبنائهما، ومن أهم وظائفها إشباع الحاجات العاطفية وممارسة العلاقات الإنسانية وتلبية حاجة الغريزة الجنسية وتهيئة المناخ الاجتماعي والثقافي الملائم لرعاية وتنشئة وتوجيه الأبناء. ويرى كثير من علماء الاجتماع أنّ الأسرة النووية وهي نموذج أسري يتميز أعضاؤه بدرجة عالية من الفردية، وبالتحرر الواضح من الضبط الأسري مما يترتب عليه أن تعلو مصلحة الفرد مصالح الأسرة ككل، وتمتاز الأسرة النواة بصغر حجمها حيث تتكون عادة من زوج وزوجة وأبنائهما غير المتزوجين.

2-5: وظائف الأسرة: تتحدد المهام الأسرية في الوظائف التالية:

- **الوظيفة البيولوجية:** وهي تقوم على الارتباط بين الزوجين بناءً على المعايير التي يقررها الدين ويحددها المجتمع، فالأسرة مسؤولة عن حفظ النوع والبقاء الإنساني ومسؤولة عن حماية الصغار وتوفير المأكل والمشرب والملبس والمسكن المناسب لهم.
- **الوظيفة الثقافية:** الأسرة هي الكيان الوسيط بين المجتمع وأفراده، فالزوجان يرتبطان معا في إطار من القيم والتقاليد والعادات الثقافية وعلى ضوء من المعايير والأعراف والسلوك الجمعي والقوانين السائدة في المجتمع، وهما يكونان معا وحدة ثقافية مميزة، حيث يعلّمان أبنائهما مفاهيم وأنماط الحياة الثقافية خلال عملية التنشئة الاجتماعية ويوضحان لهم حقوقهم وواجباتهم والسلوك المقبول والمرفوض منهم.
- **الوظيفة الاقتصادية:** وقد اختلفت هذه الوظيفة في صورها وأساليبها وأهدافها من الماضي إلى الحاضر، ومن الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية، ورغم استقلالية المرأة عن الرجل اقتصاديا في العصر الحاضر، إلاّ أنهما يكوّنان معا وحدة اقتصادية لمواجهة الأعباء اليومية المتزايدة التي تمليها طبيعة الحياة في المجتمعات المعاصرة، وبالطبع فإنّ الوظيفة الاقتصادية تتضمن رعاية الأسرة لأبنائها.
- **الوظيفة النفسية والعاطفة:** يتبادل الزوجين بعضهما مشاعر الودّ والارتياح والتقبّل والمحبة والانتماء للأسرة التي يشعر فيها الزوجين والأبناء بالراحة النفسية والعاطفية وذلك مصداقا لقوله تعالى:{ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}(سورة الروم، أية 21) وتقتضي الوظيفة النفسية والعاطفية أن تشبع الأسرة لأفرادها حاجاتهم النفسية المختلفة مثل الحاجة إلى الأمن والاستقرار، والحاجة إلى التقدير الاجتماعي، والانتماء والتعبير عن الذات واحترامها، وإذا ما قصرت الأسرة في أداء وظائفها وإشباع حاجات أفرادها فإنّ ذلك من شأنه أن يوجد عدم الرضا في الأسرة.
- **الوظيفة الاجتماعية:** تعتبر الأسرة وسطا اجتماعيا مناسبا للتفاعل الأسري، يتعلّم فيه الزوجين والأبناء كيفية إقامة علاقات اجتماعية ناجحة مع بعضهم ومع الآخرين، ويتعلّمون كيفية المحافظة على استمرارية وقوة هذه العلاقات. وتقتضي الوظيفة الاجتماعية كذلك أن تسلّم الاسرة أبنائها أدوارهم الأسرية والاجتماعية، والأسلوب المناسب لأدائها، كذلك الأسرة كنسق اجتماعي تقيم علاقات مع أسر أخرى تربطها بها صلة المكان أو العمل أو القرابة أو الصداقة، فالفرد كي ينمو اجتماعيا لابد من اتصاله المستمر بأسرته والجماعات الأخرى، ولعلّ ذلك يحدّد بدرجة كبيرة ما يتكون عليه شخصية الفرد في المستقبل.

6- النسق الأسري:

إنّ الإلمام بالنسق الأسري لا يمكن إلاّ من خلال دراسة علاقة الأجزاء، فأي تكوين يتضمن أجزاء مرتبطة مع بعضها البعض بعلاقات أو تفاعل يمكن أن نطلق عليه نسقا من الأفراد المكونين له، من الزوجين والأبناء والذي يمكن ملاحظتهم والتعرّف على شخصية وميول واتجاهات كل منهم واستعداداته وقدراته. وفي ضوء أفكار **ليفين Levine** "فإنّ السلوك الإنساني يعتبر دالة أو وظيفة لحيّز الحياة بالتفاعل بين الفرد ومحيطه الأسري، والفرد لا يصدّر ولا يتأثر من منطلق فرديته وإنّما ينتج علاقات أخرى فيما بين الأفراد كنظرة ميكانيكية ديناميكية، فهو-المحيط الأسري-من أهم المؤسسات الاجتماعية التي تنظّم تنشئة الأبناء خاصة لما يتم من دور أساسي في إشباع حاجات الطفل ومعاونته في المواقف الغير محدّدة التي يواجهها منذ مراحل حياته المبكّرة".

فالأسرة **كجماعة أوّلية** تحتل هذه المكانة المميزة بين مؤسسات التنشئة الاجتماعية باعتبارها نموذجا للجماعة الأوّلية بل إنّها الجماعة الأوّلية الأولى. ونقصد بالجماعة الأوّلية المعنى الذي قصده تشارلي **كولي Cooley** "بأنّها الجماعة صغيرة الحجم، والتي تتميّز بعلاقات وثيقة ومباشرة وعميقة بين أفرادها"، وهي أوّلية أيضا بمعنى أسبقية التأثير حيث إنّ الأسرة هي البيئة الأولى التي تقدّم الرعاية وينعكس تأثيرها عليه منفردة في المراحل الحاسمة والأوّلية من نموه، إذا يكون تأثيرها دامغا وشاملا يتضمن كل جوانب شخصية الطفل بعكس الجماعات الثانوية الذي يكون تأثيرها منصبا على جوانب معيّنة من الشخصية، إضافة إلى أنّ تأثيرها يأتي في وقت لاحق حيث يكون الطفل قد كوّن اتجاهات ومفاهيم معيّنة ونمّى مهارات خاصة به في أحضان الأسرة، ولذلك يكون تأثير الجماعات الثانوية أقل عمقا من تأثير الجماعات الثانوية.

كما أنّ للجماعات الأوّلية خاصية أخرى وهي أنّ **التعلّم** الذي يحدث في أحضانها يحكم أنواع التعلّم التالية التي تحدث في ظل الجماعات الثانوية، فما يتعلّمه الطفل في الأسرة من اتجاهات وقيم ومفاهيم يحكم نوعية وطريقة تعرّضه لتأثيرات الجماعات والمؤسسات الأخرى، وطريقة تلقيه وتفاعله مع تأثيراتها وبالتالي ما يمكن أن يتعلمه منها أو يتأثر به من جرّاء احتكاكه وتفاعله معها. وإذا كانت الجماعات الأوّلية تضم الأسرة وجماعة الجوار وبعض جماعات المجتمع المحلّي وجماعة اللعب، يتضح لنا أنّ الأسرة كجماعة أوّلية تتميز أيضا بحجم تأثيرها الكبير والعميق قياسا إلى تأثير الجماعات الأوّلية الأخرى. كما أنّ الأسرة عبارة عن **بنية** والمقصود منها شبكة العلاقات الإنسانية والاجتماعية التي تربط بين أفراد الأسرة، وعلى رأس هذه العلاقات طبيعة العلاقة بين الوالدين، ثم طبيعة علاقة كل منهما بكل فرد من أفراد الأسرة الآخرين وتوقعاته منه وفهمه لالتزاماته نحوه. ويدخل في بنية الأسرة أيضا نوعية الصراعات التي قد تنشأ بين كل فرد وآخر واحتمال اتخاذ الفرد من الأخرين وسائل لتحقيق غاياته، أو أن يتخذه كبش فداء.